فلسفة التربية الإسلامية

بقلم الأستاذ

محمد حسن أبو حطب

أثبت التاريخ أن الذين تربوا فى مدارس الأنبياء ، وأشربوا تعاليم السماء هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة ، واعتـــدل فى أيديهم ميزان الحق والعدل وانكشفت بسبب وجودهم ونقاء أخلاقهم ، أساليب الوضاعة والخيانة والغدر .

وأفاقت البشرية لترى وتسمع نمطا جديداً من الناس ، يعطى من نفسه ليسعد غيره . ويرضى بالهلاك كى تحيا وتنهض أمته .

فهذا مؤمن (آل فرعون) يقف وحده فى معارضة الباطل والظلم والإلحاد والفساد ، فيقول لقومه وقد تشاوروا فى قتل موسى عليه السلام :

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

ثم ينتقل هذا المؤمن ، من موقف الدفاع عن فرد إلى قضية أمة فيبدى مخاوفه ، وينصح قومه ، ويحذر من العاقبة ، عاقبة قتل المؤمنين . فى أسلوب واضح مهذب :

« ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » .

ولكن مؤمن آل فرعون بجد قومه ، قد تحجرت مشاعرهم وأعمتهم المناصب وأنستهم آلام الآخرين .

وكان حكيما رشيداً فى أسلوب دعوته ، شجاعا فى موقفه ، ثابتا على مبدئه ، فصارحهم بأمره وانحاز عنهم بدينه :

« وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » .

فالإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وتستعذب حلاوته الأرواح فإنه يملك على صاحبه مشاعره ، ووجدانه ، ويحدد طريقه وآماله . فلا تستطيع قوى الشر مهما طغت وبلغت ضراوتها ومهما تجبرت لا تستطيع أن تنال من إيمان المؤمنين ، وان نالت من أجسادهم وأموالهم .

* *

وهذا ذو القرنين يلجأ إليه قوم غلبوا على أمرهم واضطهدهم « يأجوج ومأجوج » ، وكدروا عليهم حياتهم ، وأفسدا أموالهم وزرعهم فطلبوا من ذى القرنين بما أوتى هو ومن معه من علم ومال وقدرة . أن ينقذهم من عدوهم الذى شردهم ، ويخلصهم من ظلمه ، وذلك مقابل أجر يعطونه إياه .

فما كان من ذى القرنين إلا أن رفض الأجر . وطالبهم بمساعدته حتى يسد ما بين الجبلين . ويقطع الطريق على الظالمين المفسدين ، ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وشعورا بواجبه نحو الإنسانية المعذبة المضطهدة .

وأدى رسالته فى هذا الميدان على خير ما يكون الأداء اقرأ قول الله

عز وجل فى سورة الكهف « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

والرعيل الأول من المسلمين الذين آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا أساتذة الدنيا فى قوة الإيمان الذى تجسد فى أشخاصهم فأحالهم إلى أفذاذ قل أن تشهد مثيلا لهم .

فهم آمنوا بالله وانصرفوا بكليتهم إليه ، وهانت فى أعينهم الدنيا وما فيها واستهانوا بكل غال ورخيص فى سبيل هذا الإيمان، وقد لاقوا آلاما شديدة، ولكن حلاوة الإيمان حين تخالط قلب المسلم تحيله إلى إنسان فوق العادة .

قال الله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

فبلال الحبشى وصهيب الرومى وعمار بن ياسر ومصعب بن عمير وغيرهم ضربوا الرقم القياسى فى صلابة العقيدة وقوة الإيمان وصدق النيـــة . وهم الذين لم يدرسوا كتب الفلسفة ولم يقرأوا علوم اليونان والرومان وإنما درسوا القرآن الكريم وقرأوا كلام الله وتتلمذوا فى مدرسة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب والمقداد بن الأسود وخالد بن الوليد والمثنى وطارق بن زياد وصلاح الدين وغيرهم من الغر الميامين ، وهم الذين دانت لهم الدنيا شرقا وغربا .

وما ذلك إلا أن مدرستهم كانت القرآن الكريم والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

الإيمان بالله هو الذى كون النفوس وبناها على وتيرة غير الوتيرة المعروفة لدى البعيدين عنه ، وبذلك كان المؤمن ولا يزال مثلا شروداً فى قوة الخلق وقوة العقيدة وقوة الشخصية ، وصدق الشاعر حيث يقول :

وفى الناس أقمار وفى الناس أنجم ... وفى الناس ألف لا تعد بواحد

وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يزن الصحابة بميزان الإيمان فيعاملهم كل على قدر إيمانه ،

كان إذا خرج للحرب خرج معه جمع غفير من الناس ، حتى إذا كان بعض الطريق انشطر الجيش إلى شطرين ، ويرجع المنافقون تاركين المؤمنين وحدهم فى الميدان ،

والحقيقة أن الرسول عليه الصلاة والسلام يود لو يخرج هؤلاء من الجيش لأنهم دعاة هزيمة ، ولأن وجودهم بين المؤمنين يولد نوعا من البلبلة والاضطراب ،

والشدائد هى الغربال الذى يتغربل فيه الناس ، فمن كان قوى الإيمان ثبت وإلا ترك الميدان بنفسه ،

وفى معركة حنين نظر أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى المسلمين فهالته كثرتهم فقال : « لن نغلب اليوم من قلة » ،

ولما دارت رحى المعركة واشتد هولها ، وحمى وطيسها ، هربت الكثرة التى تبعت الرسول ، طمعا فى الغنائم ، وهم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو ففروا وتدافعت جموعهم تريد الهزيمة ، وفى طريقهم كانوا يدفعون المسلمين الذين يريدون الوصول إلى قلب المعركة حيث لم يبق فى الميدان غير

رسول الله ﷺ وغير عمه العباس فراعه ذلك ، وأراد أن يقوم بعمل ينقذ به سمعة الإسلام فأمر العباس أن ينادى : يامعشر الأنصار يا أصحاب الشجرة وبيعة الرضوان ،

ثم التفت رسول الله عن يمينه وصاح : يامعشر الأنصار . قالوا : لبيك يارسول الله نحن معك .

ثم التفت عن شماله وصاح : يامعشر الانصار . قالوا : لبيك يارسول الله نحن معك .

وفى هذا الموقف الحرج ، لم يعتمد الرسول عليه الصلاة والسلام على أحد غير الانصار ، لانه يعرف فيهم قوه الايمان .

وفعلا عاد الانصار إلى القتال وخاضوا المعركة ، حتى كتب الله النصر للمسلمين .

وعندما جلس الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع الغنائم لم يعط شيئا للأنصار بل أعطاها كلها لهؤلاء الذين فروا أول الأمر . « وان من الناس من يقاد من بطنه لا من عقله » .

فعرف الرسول كيف يعالج أحوالهم ، فى الوقت الذى كان الرسول فيه يعرف من هم الذين يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع .

وفى هذا الموقف قال رسول الله ﷺ للأنصار : ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرءا من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلك الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا .

وفى كلمات قليلة يضع رسول الإنسانية النقاط فوق الحروف فهو يريد أن يتألف قلوب هؤلاء الناس .

وحدث الطبرى قائلا : لما هبط المسلمون المدائن ، وجمعوا الاقباض اقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال الذى معه ما رأينا مثل هذا قطعا بعدله ، ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئا فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به . فعرفوا أن للرجل شأنا ، فقالوا : من أنت فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه

فاتبعـــوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر ابن عبد قيس

لقد كان السلف الصالح مؤمنا بالله ايمانا يرفع الرؤوس ، ويقوم الاعناق فلا تنحنى لغير الله أبدا ، وملأ الإيمان قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله وعظمته ، فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة

عن أبى موسى قال : انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو ابن العاص عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : انهم لا يسجدون للملك فقال جعفر : لا نسجد إلا لله الذى لا عظمة ولا سلطان من بعد عظمته وسلطانه

وأرسل سعد بن أبى وقاص قبل معركة القادسية ربعى بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم وقد زين له قومه مجلسه بالحرير والياقوت واللآلىء الثمينة

فلما وصل ربعى بن عامر دخل بثياب صفيقة وترس وفرس ولم يزل راكبا حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه على رأسه

فقالوا له ضع سلاحك ، فقال انى لم آتكم وانا جئتكم حيث دعوتمونى فان تركتمونى هكذا والا رجعت فقال رستم : ائذنوا له ، فاقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق . فقالوا له : ما جاء بكم .

فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدالة الاسلام فارسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن ابى قاتلناه ابدا حتى نفضى الى موعود الله قالوا وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى ، فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

قال نعم : كم اجل اليكم يوما او يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب اهل رأينا ورؤساء قومنا ، فقال ما سن لنا رسول ﷺ ان نؤخر الاعداء عند اللقاء اكثر من ثلاث فانظر فى امرك وامرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل فقال : اسيدهم انت ، قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير ادناهم على اعلاهم ، فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط اعز وارجح من كلام هذا الرجل .

فقالوا معاذ الله ان تميل الى شىء من هذا وتدع دينك الى هذا الوغد اما ترى الى ثيابه ؟

فقال : ويلكم لا تنظروا الى الثياب ، وانظروا الى الرأى والكلام والسيرة ، ان العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الاحساب .

وعن مالك بن انس رضى الله عنه انه قال : « بعث الى ابو جعفر المنصور والى ابن طاووس فدخلنا عليه وهو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انقطاع « بسط من الجلد » قد بسطت ، وجلاد بايديه السيوف لضرب رقاب الناس ، فاومأ الينا بالجلوس واطرق عنا طويلا ، ثم التفت الى ابن طاووس فقال :

حدثني عن ابيك ، قال : نعم سمعت ابي يقول : قال ﷺ « ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله في حكمه فادخل عليه الجور في عدله » قال مالك : فضممت ثيابي مخافة ان يملأني دمه ، ثم التفت اليه ابو جعفر فقال : عظني يابن طاووس ، قال : نعم ، اما سمعت الله تعالى يقول : « الم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » .

قال مالك : فضممت ثيابي مخافه ان يملأني دمه ، فأمسك المنصور ساعه ثم قال : يابن طاوس ناولني الدواة .

فأمسك ابن طاووس الدواة ، ولم يناولها اياه وهي في يده فقال ابو جعفر : ما يمنعك ان تناولنيها ؟ قال : اخشى ان تكتب بها معصيه ، فاكون شريكك فيها .

فلما سمع المنصور ذلك قال : قوما عني ، قال ابن طاووس ، ذلك ما كنا نبغي ، قال مالك : « فما زلت اعرف لابن طاووس بعدها فضله » .

ان قوة المسلمين في ايمانهم ، وان ضعفهم في تخليهم عن هذا الايمان .

وهذه حقيقة لايماري فيها عاقل ، فاذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الاخر وتزكت الروح واسلم الجسد لتعاليم الإسلام ، فحينئذ يأخذ المسلمون عدتهم في القوة ويجتمع شملهم ويدركون ما عليه العالم من تقدم علمي وسياسي واجتماعي .

وصدق الله سبحانه في قوله « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون » .

تعريفات

الشرف : اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة .

اللؤم : احراز المرء ماله وبذل عرضه .

الجبن : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .

الغنى : رضا النفس بما قسم الله لها وإن قل .

الذل : الفزع عند الصدمة .

التكلفة : كلامك فيما لا يعنيك .